من ذكرياتي مع خليل

حليم جرداق

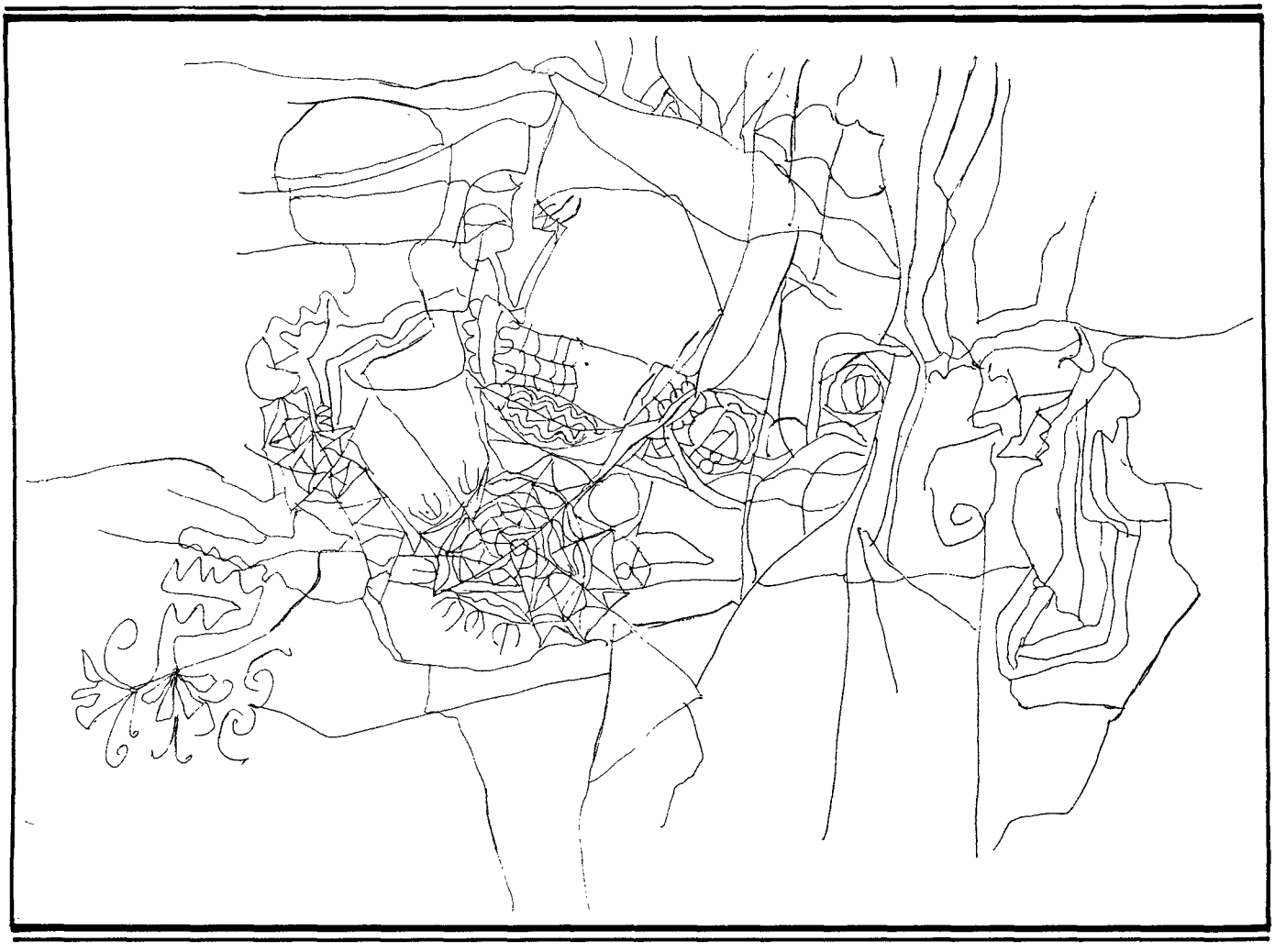

أتى الـزّمـان بـنـوه في شـبـيـبـتـه
فسرّهـم وأتـيـنـاه عـلـى الهـرم

بيتٌ للمتنبّي كان خليل يـردّده. كان يقـول لي إنّ زمن الانحدار والأفول قد بدأ منذ ذلك الوقت فأحسّه المتنبّي وكابده.

كان يردّد هذا البيت فيستبدل كلمة «شبيبته» بكلمة «فتوّته» قائلاً إنّ ذلك أفضل وقعاً وأقرب إلى نبض المتنبّي وذوقيّته الشعريّة.

كان خليل يشعر بكل كيانه، وبصورة مأساويّة، بـالانحطاطـات والانهيارات حوله على جميـع الصعد، وبـالأخصّ على صعيـد الفكر والثقافة والوعي الاجتماعيّ. وكان من النوع ومن الجيل الذي يحمل الهموم ويشعر بأنّ عليه أن يتحرّك وأن يتحمّل المسؤوليّة.

خليـل هو من الـذين تضعهم الحياة في وضـعٍ يجعلهم يشعـرون ويفكّرون ويتصرّفون بهاجس أنّ حياتهم يجب أن تكون حياة مواقف وتحديّات وبذل وجهد. إنّـه من الذين يشعـرون أنْ ليس من حقهم أن يصرفوا أوقاتهم على راحتهم الخاصّة، بل أن يجعلوا حيـاتهم دعماً وسنداً للأهل وللمجتمع وللعالم قاطبةً.

إنّه من طينة النّاس الذين يأخذون الأمـور بجديّـة. فلا انفصـام

عندهم بين خاصّ وعامّ، أو بين قول وفعل. إنّه من الصادقين، بكلّ بساطةِ وسذاجةِ النفس النشيطة الشاعرة اليقظة المريدة المميّزة.

أصحاب هذه النفوس يلاقون الصدمات والصعوبات، ويواجهون التحدّيات في مجتمعهم، ويكابدون خيبات الأمل بالنسبة إلى أمانيهم وآمالهم وتطلّعاتهم وطموحاتهم النبيلة الكبيرة، ويتألّمون يأساً من الإصلاح والترقّي.

خليل من الذين يتملّكهم الشعور بأنّ عليهم أن يصلحوا المجتمع وأن يعتلوا همّ كلّ إنسان فيه. وإنّ هذا الشعور يرتقي فيهم إلى الإحساس بأنّهم مسؤولون عن أزمات العالم قاطبة وعلى جميع مستوياتها الفكريّة والفنّيّة والثقافيّة. ولمّا كان خليل شاعراً ومفكّراً مميّزاً فقد رسا عليه همُّ المعرفة والحقيقة التي لا تنفصم عنده عن الإبداع الشعريّ.

واجه خليل السؤال الكبير الخطير: ما هي الحقيقة؟. هل هناك حقٌّ واعٍ مريد في الكون، أم أنّ المسألة هي خبطُ عشواء؟ هل من سبيل للإنسان أن يعرف حقيقته الذاتيّة الجوهريّة في ذاتها وكذلك حقيقة الأشياء إذا كان هناك حقيقة؟؟

في خضمّ هذه البلبلة والفوضى والضياع أين المقياس؟ أين المعيار؟ هل هناك أصول ومرجعيّة، أم أنّ الأمر محض مصادفات وظروف متقلّبة متبدّلة عشوائيّاً؟ أصحيح أنّ الإنسان هو مجرّد مضغة تافهة في جوف حوت الفناء والعدم؟ هل للإنسان معنى وقيمة في هذا الكون المادّي السائر إلى الزوال والفناء في نهاية المطاف كما يقول العلم المادّي؟ هل هناك «بقاء» وديمومة للإنسان أم أنّه مجرّد فقاعة صابونيّة بين لانهائيّتيْن من العماء المادّي المتلاشي في نهاية المطاف؟

خليل يريد للوجود وللحياة حقيقة ومعنى إنسانيّاً يقينيّاً، فلا يجد إلّا علوماً تزيد في التساؤلات أكثر ممّا تجيب عليها، وتُكثر من المجهولات أكثر ممّا تضيف إلى المعلومات في هذا الشأن. كما أنّه من جهة ثانية لا يرى حوله سوى الانهيارات وعوامل التأخّر والتفرقة والعرقلة والتخريب والرّدة والرجعة والفواجع وخيبات الأمل من الإصلاح والترقية والتوحيد على صعيد العروبة والعالم العربي.

أمّا على صعيد الإنسان الذات الشخصيّ الفرد فإنّ خليل يريد له ديمومة وكينونة تتخطّى الموت وتبقى. إيمانات الأديان المعهودة بدت له، في زمن الوعي العلمي الحديث، أوهى من خيوط العنكبوت وأرخص من علكة في الفمّ.

هذا الهمّ الإنساني الفردي الذاتي الشخصي كان خليل يعانيه في كلّ لحظة، وإنْ لم يجعله موضوعاً لشعره ولكتاباته، ما عدا إشارة إلى ذلك في **البحّار والدرويش**؛ وذلك لأنّ اهتمامه بالقضايا العامّة جاء على حساب اهتماماته الخاصّة.

في أحاديثه الخاصّة كان خليل يكشف عن هذا الهمّ. كنّا نشغل تفكيرنا بقضايا وجوديّة جوهريّة منها قضيّة الموت.

هل يُنهي الموتُ الإنسان؟ هذه الذات، أي هذه الأنا الإنسانيّة الشخصيّة الفرديّة المعيّنة المميّزة الواعية المفكّرة الشاعرة المريدة التي تتأجّج بكل هذه الطموحات والأحاسيس والمشاعر والأماني والصور، هل يطفئها الموت وكأنّها لم تكن؟؟ إذا كان الأمر كذلك، فكلّ شيء باطل وعبث. إنّه يريد لهذه «الأنا» الذات الفرد الشخص الدوام والبقاء الحقيقيّين الفعليّين الأبديّين لكي يكون للوجود قيمة ومعنى بالنسبة للإنسان. إنّه يريد لهذا «الوعي» الذاتيّ الشخصيّ الفرديّ الكينونيّ أن يستمرّ بعد الموت بشكل أو بآخر. أمّا القول بأنّ الإنسان الفرد «يبقى» عبر ما يتركه من أثر قيّم في الفنون أو العلوم وغيرها، أو عبر أعماله في المجتمع، أو عبر ما يخلّفه من أولاد، فإنّ هذا النوع من البقاء هو مجرّد كلام ترضية لا يُقنع ولا يُشبع أصحابَ النفوس التي لا ترضى في البحر بوَشل ولا تقنع بأقلّ من الوعي الذّاتي الباقي.

إنّ المعارف والمعلومات العلميّة اليوم لا تقدّم أيّ إيجابيّة أو دلالة أو يقين في كشف جوهر هذه الرّغبة أو هذا التوق/ الشوق/ الهاجس/ الهاتف/ الذي هو الأهمّ والأعظم في حياة الإنسان وفي معنى هذه الحياة. بل على العكس من ذلك؛ فهي تأتي بالشكوك التي تطعن الإنسان في قُدس أقداسه وتزيده حيرة وقلقاً. العلم المادّي المختبري المتكلّم اليوم هو حرف يقتل فيما يختصّ بحقيقة الذات الإنسانيّة الجوهريّة، وليس فيه شيء من الرّوح الذي يُحيي في هذا المجال. أمّا إيمانات الأديان وروحانيات المتصوّفة التي استُهْلكت وتعفّنت من زمان، فلم يعد باستطاعتها أن تعطي الارتياح واليقين للوعي العلميّ الحديث الذي لأصحاب الأنفس الفاوستيّة التي تصبو لأن «تعرف» وتختبر الحقيقة في نبعها والزّمنَ في أبديّته.

أصدقاء خليل وزملاؤه وأقرانه وتلاميذه الكُثُر، والنّاس عامّةً، يعرفون خليل حاوي الشاعر المميّز والأستاذ الجامعي الدكتور الذي يخرجُ من بيته أو من مكتبه إلى الناس أنيقاً وفي عينيه نظرات الترفّع والتعالي والتحدّي، وفي تحرّكه ومسراه شيء من العنجهيّة الأنيسة. وهذه كلّها ما هي إلّا الأشواك الطبيعيّة البديهيّة التلقائيّة الساذجة الضروريّة التي لا يمكن أن نتصوّر الوردة الجوريّة بدونها. فخليل عندما يخرج إلى الناس يعرف، بوعيه أو لاوعيه، أنّ هؤلاء في معظمهم، ولا سيّما «الأنتلّجنسيا»، يعشعش فيهم «اهريمان» الحسد والاغتياب والتصنّع والتمويه والهذر والوغول والتزوير والتجنّي والكيد والادّعاء. إنّهم في معظمهم، أناسٌ غير حقيقيّين.

هـذا الخليل هـو ليحمي خليلاً في قـدس أقـداسه وفي حقيقتـه اللّطيفة المحبّة السلسة الفرحة الطريفـة السهلة الانقياد أمـام الحقّ، والتي تصدّق كلّ شيء ولا تـظنّ السوء بـأحد ولا تتكـبّر ولا تحسد. عندما يـأنس خليل إلى أجـواء الناس الحقيقيّـين فهو الإنسـان المرح الشغـوف الصفي المتعطّش إلى المعـرفة، السـاجـد الشـاكـر المبـارك المتلقّف. هـذا هو الشـاعر المميّـز والأستاذ الـدكتور الـذي تعوّد أن يُلقي لا أن يتلقّى، وأن يُصغى إليه لا أن يُصغي.

كلّما انصبَّ خليل في سمعي امتلأ هو كذلك

الساعة الخـامسة والنصف عصـراً. أنا جـالس في المقعد المعهـود على شرفة بيت خليـل في الشويـر، أنتظر خليـلاً، وهو يكلّمني بـين حين وآخر من غرفة الحمّام حيث يحلق ذقنه، وفي صـوته رنّـة فرحـة بأنّني جئت.

إنّي أنتـظره وأنا أُدوزنُ أوتـار نفسي تهيُّؤاً لجلستنا واستبشـاراً بها، وهي جلسة ننعم فيها بمتعة الشعر والفنّ والفكـر كما ينعم المتصـوّفة بحلقات الذّكر.

أوراق خليـل وكتبـه عـلى الـطاولـة هـذه وعـلى المقعـد ذاك في الصالون، وغيرها أوراق وكتب على هذا المقعـد في الشرفة، فـأعلم أنّـه هذه المـرّة «على الخطّ» مـع «كولـردج» أو المتنبّي أو «بلايـك» أو «ييتس» أو أحـدث مجمـوعـة من الشعـر الأمـيركي أو الصيني أو الفـرنسي، فأنسلك معـه في الجوّ. وأرى خليلاً يقبل نحـوي، ذقنه ناعمة، ووجهه يشرق متأهّلاً بي، ويُسمعني بشغف وحماسة ما يجول في خاطره وكأنّه لا يبدأ حديثاً بل يكملّ ما كان يكالمني به بينه وبـين نفسـه. ويسري الكـلام وأنـا أصغي، وخليـل ينصبّ في سمعي. وكلّما انصبّ امتلأ هو كذلك. ويـدور الحديث في الأمـور والقضايـا التي نحياها ونعانيها فترتبط كلّ واحدة منها، حتّى أكـثرها اعتيـاديّةً، بـأبعادهـا الفكريّـة الروحيّـة الأساسيّـة. وما إن أجيبـه بملاحـظة أو تعقيب، حتّى تكـون الحلقة قـد بدأت تتـوسّع، فيحضر «كـولردج» و«نـوفـالس» والمتنبّي و«بـلايـك» و«هـولـدرلن» و«ييتس» و«غـوتـه» و«كاندنسكي» و«كليه» و«دوستويفسكي» و«نيتشه» وغيرهم وغـيرهم من الشعراء والفنّانين والمفكّرين. وأحياناً كنت أتكلّم عـن «رودلف شتاينر» الذي جعل من الحقـائق الرّوحيّـة الماورائيّـة «علماً» يمكنه أن يخـاطبـه إنسـان الـوعي العلمي المـادّي والفلسفي الحـديث بمنـطقٍ علميٍ روحي لا يُدحض. فقد رفع الماورائيّات إلى مستوى «العلم» بكـلّ مـا في كلمـة «علم» من معنى. وكـان خليـل يصغي بشغف واهتمام، وهو العميق المعرفة في الماورائيّات والتصوّف عند الشرقيّـين كما عند الغـربيّين. ويجـري الحديث ويتشعبّ ويتـوالد وننخـطف في أجـواء الفنّ والفكر العليـا في محفل تضيئـه الكواكبُ التي تـأخـذ في الطلوع علينا متلألئةً بعد المغيب وقد ناص الغسق وتلاشى في دغشة المساء وعتمة أوائل الليل.

ويـطول الحديث حتى نتنبّـه إلى أنَّ الـوقت قـد حـان لنـطلع إلى «الضهـور» ونلتقي الأصحاب وبينهم مصـطافـون وكـذلـك شبـاب وفتيات تلامذة خليل الـذين كانـوا يصعدون من بـيروت إلى ضهور الشوير ليمضوا السهرة معنا. وكنّا نصعد مع الأصحاب إلى ما فـوق «عنطورة» على طريق زحلة، أو إلى «ترشيش» وإلى «عـين الرهبـان» لنتمتّع بالقمريّات ولنشرب الماء البارد الطازج الذي يفور من خاصرة الجبـل، ولنعبّ من الأهويـة التي تأتينـا نظيفـة مُبَوْرَدَةً فيهـا العافيـة والصفاء، تحت كواكـب تتوهّج حين يكون الليل بلا قمر، فنرتفـع إليهـا بهناءاتنا ونصير فيهـا مع محـافل الكـائنات العليّـة المبجّلة التي تسكنها. وعندما نعود إلى «الضهور» نترجّل أنا وخليـل وننزل مشيـاً إلى الشوير، والناس نائمـون، وخليل وأنـا نسير وحـدنا في الليـل، تُمـاشينا روحُ الليـل ويرافقنـا صوتُ صرّار الليـل الآتي من القـريب والبعيد من أحراج الصنوبر والعفص والسنديان. نمشي عـلى الأرض وكذلك فوق الأرض في ضياء صمتنا وتحادُثِنـا وفي وهج اغتبـاطنا في عمق أعماقنـا بأنّنا نحيا في مثل هذه البقعة الجبليّة.

وعند مفرق عين السنديانة القريب من بيت خليل، نقف وقفة لا ننتبه إلى مدى قصرها أو طولها، وبعدها أكملُ طريقي.

هكذا كنّا نُمضي أيام الصيف.

يصدر قريباً

قصر الأحلام

للروائي الألباني الكبير

اسماعيل كاداريه

ترجمة: د. عفيف دمشقية

دار الآداب